النقـــــد الرخيص

للأستاذ محمد محمد المدنى

لا شك أن النقد أمر لا بد منه فى قضايا العلم والبحث ، وأنه ما دامت العقول المفكرة ، والأقلام الكاتبة ، فلا بد أيضاً من الآراء المتضاربة !

ذلك أن الناس يختلفون فيما يُصدرون عنه اختلافاً شديداً تبعاً لاختلاف حظوظهم من العلم والعقل والتفكير ودرجة التأثر « بالعرف الطائفى » و « البيئة الخاصة » :

هذا كاتب يستطيع ـ حين يعالج موضوعاً من الموضوعات ـ أن يُخلص للحق فيه أكثر من إخلاصه لأى شىء سواه ، فتراه يخلع ما عسى أن يكون له من آراء كوّنها لنفسه باعتباره عضواً فى بيئة خاصة ، أو متأثراً بظروف معينة ، بل كوّنها له هذه الظروف وتلك البيئة من حيث لا يشعر ؛ فإذا خلع هـذه الآراء وتحلل منها — ولو مؤقتاً — ولم يجعل لها سلطاناً على تفكيره ، ولا أثراً فى طريقة بحثه ، استطاع أن يصل إلى النتيجة التى يبتغيها المخيفة ، استعبرت . وكنت أطلّ على بردى ، وهو يجرى زاخراً فأتأمله ، فأجده أحلى فى عينى مما كان ، وأحب إلى نفسى ، وعزّ علىّ أن أفارقه ، واستفاقت فى ذهنى مئات من الذكريات ، وكرّت علىّ حياتى كلها كأنها (فِلْم) أراه ، فأبصرت فى كل بقعة من دمشق ، وكل طريق من طرقها قسما من حياتى ... وهل حياة المرء إلا فى قلوب أصدقائه ، ووجوه أصحابه ، وجوانب داره ، ومشاهد بلده ؛ فإذا فارق أهله ، وغادر بلده ، إلى بلد لا يعرفه ، وأهل لا يألفهم ، فكأنما مات نصف ميتة . ومن أجل ذلك كانت الهجرة جهاداً فى سبيل الله ، ذلك لأنها لون من ألوان الموت ، ولـكن صاحبها ميت يعيش ليتألم ، والميت مات فاستراح

واستغرقت فى هذه الأفكار فما صحوت إلا والموكب قد بلغ (بوابة الله) ووقف فى ظاهر دمشق ، ولم يعد موكباً وإنما صار طوفاناً من البشر ، ولجّاً طامياً من الناس ، وكان من ثقله يزحف زحفاً ، ويكبر فيزلزل الأرض ، ويهتف فيشق عنان السماء ، فلما بلغ (البوابة) وقف للوداع ...

(لها بقايا)

علي الطنطاوى

١٤ ٥٩

وهو أبعد عن مزالق الخطأ ، وآمنُ من مواقع الهوى !

أما إذا فرض الكاتب على نفسه ثقافة معينة أيا كانت قيمتها فسلّم بقضاياها ، واطمأن إلى عرفها ، واستراح إلى أحكامها ، ثم تناول ما يريد من بحث على هذا الأساس ؛ فقلما يصاحبه التوفيق أو يصادفه النجاح ، لأنه إذا صادفه فى أثناء بحثه ما يخالف هذه القضايا التى آمن بها واطمأن مقدماً إليها ، نفر منه وضاق صدراً به فاضطرب لذلك ميزان تفكيره واختل معيار منطقه !

ولا تجد شيئاً أضر على العلم ، ولا أسوأ أثراً فى العقل ، ولا أشد إفساداً للرأى ، من التعصب وإدخال « الطائفية » فى مجال البحث والنقاش . ذلك أن العلم والعقل والرأى ليست وقفاً على طائفة من الناس دون طائفة ، وليس أحد أولى بأن يزعمها لنفسه من أحد ، وليس لمنصف أن يحكم فيها عرفاً دون عرف ، أو ثقافة دون ثقافة ، وإلا خرج عن دائرتها ، وتحلل من منطقها !

ومن هنا يأتى النقد ، ومن هنا أيضاً تختلف قيمته ، فيكون بعضه غالياً ثميناً ، وبعضه مبتذلاً رخيصاً . وتختلف كيفيته ، فيكون بعضه هادئاً نزيهاً ، وبعضه هائجاً سفيهاً ! وكل ذلك بحسب اختلاف معيته الذى فاض عنه ، أو إنائه الذى نضح به !

فى ناحية التفكير الرشيد ، والعقل المتزن ، والعلم الموثوق به ، تجد النقد الهادئ ، والرأى السديد ، والأسلوب الراقى ، واللفظ المهذب ! وفى ناحية التفكير القاصر ، والأفق المحدود ، والعلم الذى هو أشبه بالجهل ، تجد النقد الهائج ، والرأى الغطير ، والأسلوب الوضيع ، واللفظ البذىء !

ولهذا وذاك أمثلة فيما يطلع به الناقدون على الكاتبين من نقد أو اعتراض ، وفيما تجرى به حركاتهم وألسنتهم من فعل أو قول . ولو شئنا لمثلنا هنا بما نعرف فلاسودت وجوه ، وابيضت وجوه ! ولكنا نعرف أن الموازنة على هذا النحو تؤلم نفوساً لا نحب لها أن تألمَ ، وتقضّ مضاجع عزيزاً علينا أن نُقض ، فحسبنا أن نجمل على ذلك علامة يلمح بها ما نريد أن نصلحه ، ولا نريد أن نفضحه ، من « النقد الرخيص »

إذا أردت ، أيها القارئ الكريم ، أن تعرف قيمة النقد فانظر إليه ، فإن وجدت صاحبه يبحث فى الجوهر واللباب ، دون العرض والقشور ، ويطيق أن يشرح بالحق صدراً ، ويعترف به جهراً ، فى أسلوب عفيف ، ولفظ مهذب ، فذلك هو « النقد الثمين »

وإن رأيت صاحبه يشغل الناس بغير الحديث ، ويهرب من مواجهة الحق ، ولا يُكرّم قلمه أن يسيل بالألفاظ النابية ، والكلم الجافية ، كأن يرمى الذى ينقده بالجهل ، وسوء النية ، واللق ، والضعف ، والعقوق ، والفسوق ، وغير ذلك من الأوصاف ، فاعلم بأن هذا هو « النقد الرخيص »

وإنما كان كذلك لأنه لم يكلف صاحبه جَهداً ، ولم يتقاضه تفكيراً ولا تعباً ، فقصاراه أن يكون مجموعة من القول السيئ لُزّت فى قَرَن ، ثم قُذف بها صاحبها فى وجوه الناس ، فأبت إلا أن تعود إليه لتلتصق به !

وقد عنى القرآن الكريم بأن يرسم للناس طريق الأدب فى هذا المجال واضحاً ، وأن يضرب فيه الأمثال ، والله بكل شىء عليم !

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يُلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ؛ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار »

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

وينبغى على كل حال أن يغتبط الكاتب ذو الفكرة بما يتطاير حوله من سهام النقد ، أو يثور عليه من غبار الاعتراض ، فإن ذلك دليل واضح على أن فكرته قد وضعت موضع النظر ، وأنها جديرة بالأخذ والرد والمناقشة والجدال

أما الفِكَرُ المهزيلة الساقطة فهى التى تولد فلا يحس بميلادها أحد ، وتموت فلا يشعر بفقدها أحد ، وصاحبها فى الحالين مغمورٌ مغمور !

وينبغى أيضاً أن يكون الكاتب ـ مع اغتباطه بما يرى من الاهتمام بفكرته ـ مترفعاً محتفظاً بمستواه ، فلا يغريه إخلاصه للفكرة ، وتفانيه فى الذود عنها ، بأن ينازل غير الأنداد ، فيجادل فيها الوضيع كما يجادل الرفيع ، ويناقش الجاهل كما يناقش العالم ، ويعامل الصغار المعاند بما يعامل به المستوضح المتثبت ، ويسوى بين « النقد الرخيص » و « النقد الثمين » فإن فى الناس من يجعل ذلك حيلة ، ويتخذ منه وسيلة ، ليطير ذكره ويذيع اسمه . فليحذر الكتاب هذا النوع من الناقدين وليفوتوا عليهم قصدهم ، ويعكسوا ـ بإهمالهم ـ غرضهم !

وفى مثل ذلك يقول بشار بن برد : « هجوت جريراً فأعرض عنى واستصغرنى ، ولو أجابنى لكنت أشعر الناس ! »

وقد اعتذر مسلم بن الوليد عما ترك من هجاء دعبل الخزاعى بأنه ليس كفئاً لهجائه ، وأن عرضه أدَقُّ من أن يُهجى ، فهو يتركه لهذا العرض الدقيق . قال :

أما الهجاء فدَقَّ عِرضُك دونه ... والمدح عنك كما علمت جليل

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عِرضٌ عززتَ به وأنت ذليل !

وكما ينبغى للكاتب أن يحتفظ بهذه المنزلة الكريمة لنفسه ، ينبغى له أن يحتفظ بمثلها للمنبر الذى أشرف على الناس منه ، فإذا كتب كاتب فى « الرسالة » مثلاً فعليه ألا يشوّه جمالها بما يَرُدُّ فيها على « النقد الرخيص » يُنشر فى غيرها

تلك شرعة النقد والكتابة عندى ، وأنا أولى بأن أطبقها على كل من نقدنى فأسرف

فيأيها الذين نقدتم فأسرفتم ، ويأيها الذين نبا بكم القلم حين كتبتم : اذهبوا جميعاً فأنتم الطُّلَقَاء !

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

ادارة البلديات — طرق

تقبل العطاءات بادارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر ١٥ يونية سنة ١٩٤٠ عن عملية رصف بعض شوارع مدينة السويس وتطلب الشروط من الادارة نظير ٢ جنيه ٦٨٠٠